

17 - السيدة أم معبد



أشرف ضيف زارها

اسمها عاتكة، والدها خالد بن خليف، وحين أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى يثرب ليخلص من أذى المشركين ونكالهم به وبأصحابه ﷺ، خرج رسول الله ﷺ من مكة يصحبه أبو بكر الصديق أول من آمن برسالته، وصدق بدعوته، فدخل غاراً في جبل ثور، ودخل أبو بكر قبل النبي ﷺ حتى يتحرى له داخله لئلا يجد شيئاً يؤذيه، فيتلقاه دونه، وبقياً في الغار ثلاثة أيام.

وكان عبد الله بن أبي بكر الصديق ﷺ يأتيهما بأخبار قريش وتحركاتها، وكانت أخته أسماء - ذات النطاقين - ﷺ تأتيهما بالطعام والشراب، فلما يمما شطرب يثرب صحبهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وعبد الله بن أريقط أحد الأدلة الذين يعرفون الطريق إليها، وكانت أشعة الشمس شديدة الوطأة، ورمال الصحراء تكاد تشتعل من فرط الحرارة.

وبعد أن قطع النبي ﷺ وصحبه بعض الطريق، لمحوا عن بُعد خيمة رابضة فوق الرمال الملتهبة، فأتجه موكبه الشريف إليها، وكانت الخيمة لأم معبد - وهي كنية عاتكة - وزوجها أبو معبد، نصبها على طريق الركبان لاستضافتهم، والعيش على ما يقدمونه من أعطيات.

وقد روى البيهقي - رحمه الله تعالى - أن رسول الله ﷺ ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي، فمروا بخيمة أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية.

وكانت أم معبد امرأة بَرْزَةَ⁽¹⁾، جَلْدَةَ⁽²⁾، تحتي⁽³⁾ بفناء الخيمة، فتطمع وتسقي من يمر بها، فسألوها: هل عندك لحم أو لبن يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك، وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القري⁽⁴⁾، وإن القوم مُزْمِلُونَ مُسْتَبْتُونَ⁽⁵⁾، فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كِسْرٍ⁽⁶⁾ خيمتها، فقال: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبِدٍ؟» فقالت: شاة خَلْفَهَا الْجَهْدُ⁽⁷⁾ عن الغنم، فقال رسول الله ﷺ: «فَهَلْ فِيهَا مِنْ لَبَنِ؟» فقالت: هي أَجْهَدُ⁽⁸⁾ من ذلك، فقال ﷺ: «أَتَأْذِنِينَ لِي أَنْ أَخْلِبُهَا؟» فقالت: إن كان بها حَلْبٌ فَاحْلُبْهَا؛ وفي رواية: قالت: نعم، بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حَلْباً فَاحْلُبْهَا.

بركة المصطفى ﷺ تصيبها

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها، وذكر اسم الله، ومسح ضرعها؛ وفي رواية: ظهرها؛ وذكر اسم الله، ودعا بإناءٍ لها يُرْبِضُ الرَّهْطَ⁽⁹⁾ وَتَفَاجَتْ⁽¹⁰⁾ واجترت؛ وفي رواية: درت؛ فحلب فيه ثَجاً⁽¹¹⁾ حتى ملأه، فسقى أم معبد، وسقى أصحابه، فشربوا عِلَلاً⁽¹²⁾ بعد نَهْلٍ⁽¹³⁾، حتى إذا

(1) البَرْزَةُ: العفيفة الجلييلة المسنة.

(2) الْجَلْدَةُ: القوية.

(3) تحتي: تجلس.

(4) ما أعوزناكم القري: أي ما أحوجناكم، بل كنا نضيفكم.

(5) مُزْمِلُونَ مُسْتَبْتُونَ: أي أصابتهم السنة الجدباء.

(6) الكِسْرُ: الجانب.

(7) خَلْفَهَا الْجَهْدُ: أي منعها الهزال عن لحوق الغنم إلى المرعى.

(8) أجهد: أضعف.

(9) يُرْبِضُ الرَّهْطُ: أي يُشبع الجماعة حتى يرووا من اللبن، فيثقلوا فيناموا.

(10) تَفَاجَتْ: أي فتحت ما بين رجلها.

(11) النَّهْلُ: هو السيلان.

(12) شربوا عِلَلاً: أي الشرب الثاني.

(13) النَّهْلُ: الشرب الأول.

رووا شرب رسول الله ﷺ آخرهم، وقال: «سَاقِي الْقَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْبًا»، ثم حلب ﷺ فيه ثانياً عَوْدًا على بَدءٍ، وغادره⁽¹⁾ عندها؛ وفي رواية: قال لها ﷺ: «إِرْفَعِي هَذَا لِأَبِي مَغْبَدٍ إِذَا جَاءَكَ».

ثم ارتحلوا، فقلما لبث⁽²⁾ أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعترأ عجافاً⁽³⁾ يَتَسَاوَكُنْ⁽⁴⁾ هُزْلاً، مُخْهُنَّ قَلِيلٌ⁽⁵⁾، فلما رأى اللبن عجب، وقال: من أين هذا اللبن يا أم معبد، ولا حَلُوبَ في البيت، والشَّاءَ عازب⁽⁶⁾ حِيَالٌ⁽⁷⁾؟! فقالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجلٌ مباركٌ، كان من حديثه كذا وكذا؛ وفي رواية: كيت وكيت، فقال: صفيه لي يا أم معبد.

وصفها الدقيق للنبي ﷺ

فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضأة⁽⁸⁾، حَسَنُ الْخَلْقِ، مَلِيحُ الْوَجْهِ؛ لم تُعَبِّه ثُجْلَةً⁽⁹⁾، ولم تُزِرْ بِهِ صَعْلَةً⁽¹⁰⁾؛ قَسِيمٌ وَسِيمٌ⁽¹¹⁾؛ في عينيه دَعِجٌ⁽¹²⁾، وفي أشْفَارِهِ وَطْفٌ⁽¹³⁾، وفي صوته صَحْلٌ⁽¹⁴⁾؛ أحور⁽¹⁵⁾،

- (1) غادره: أي تركه.
- (2) قلما لبث: أي ما لبث إلا قليلاً.
- (3) العجاف: الهزل الشديد والضعف.
- (4) يَتَسَاوَكُنْ: يتمايلن في المشي من ضعفهن.
- (5) المَخُّ: الودك الذي في العظم.
- (6) الشَّاءَ عازب: أي بعيدة المرعى.
- (7) حِيَالٌ: أي لم تحمل.
- (8) الوضأة: الحَسَنُ.
- (9) الثُّجْلَةُ: عظم البطن.
- (10) الصَّعْلَةُ: صِعْرُ الرَّأْسِ.
- (11) قَسِيمٌ وَسِيمٌ: صفتان تدلان على الحسن.
- (12) الدَّعِجُ: شدة سواد العين مع شدة بياضها.
- (13) الوَطْفُ: كثرة شعر الحاجبين والعينين.
- (14) الصَّحْلُ: البُحَّةُ في الصوت.
- (15) الحَوْرُ: شدة بياض بياض العين، وشدة سواد سوادها، وهو المحمود المحبوب.

أكل (1)، أَرْجُ (2)، أَقْرُنُ (3)؛ في عنقه سَطَعَ (4)، وفي لحيته كثائَةٌ (5)؛ إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء؛ حلو المنطق، كلامه فَضْلٌ، لا تَرْزُ (6)، ولا هَذْرٌ (7)، كأن منطقَه خَزَزَاتٌ نَظْمٌ يَتَحَدَّرْنَ؛ أبهى الناس وأجمله من بعيد، وأحسنه من قريب؛ رَبْعَةٌ (8)، لا تَشْنُوهُ عَيْنٌ من طولٍ (9)، ولا تقتحمه عَيْنٌ من قِصَرٍ (10)؛ غصنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قَدًّا، له رفقاء يَحْفُونُ (11) به، إن قال استمعوا لقلوه، وإن أمر تبادروا لأمره؛ مَخْفُودٌ (12)، مَخْشُودٌ (13)؛ لا عابس، ولا مُفَنَّدٌ (14).

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمست أن أصحبه؛ وفي رواية: لو رأيته لاتبعته؛ ثم قال: والله لأجهدنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

هجرتها للمدينة وإسلامها

ثم إن أم معبد هاجرت مع زوجها إلى النبي ﷺ، وأسلما وبايعاه،

- (1) الكَحْلُ: سوادٌ في أجنان العين خلقة.
- (2) الأَرْجُ: دقيق طرف الحاجبين.
- (3) الأقرن: أي مقرون الحاجبين، أي ملئقي طرفيهما.
- (4) السَطْعُ: ارتفاع العُنُق وطوله.
- (5) الكثائَةٌ: الاجتماع والكثرة.
- (6) التَّرْزُ: القليل.
- (7) الهَذْرُ: الكثير بلا فائدة.
- (8) الرُّبْعَةُ: وسيط القامة.
- (9) لا تَشْنُوهُ عَيْنٌ من طولٍ: أي لا يَبْغُضُ لفرط طوله.
- (10) لا تقتحمه عَيْنٌ من قِصَرٍ: أي لا تتجاوزُه إلى غيره احتقاراً.
- (11) يَحْفُونُ: أي يحيطون به.
- (12) مَخْفُودٌ: مَخْدُومٌ.
- (13) مَخْشُودٌ: أي عنده حَشْدٌ، وهم الجماعة.
- (14) المُفَنَّدُ: الذي يُكثِرُ تخطئة محدثه، أو تكذيبه، أو لومه.

وسُمِعَ بمكة صوتُ عالٍ، سمعه أهلها، ولا يدرون مصدره، ولا يعرفون صاحب ذلك الصوت، وهو يقول:

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ
هُمَا نَزَلَاها بِالهُدَى وَاهْتَدَتْ بِهِ
فِيَا لِقْصِي مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ
لِيَهِنَ بَنِي كَعْبٍ مَقَامَ فَتَاتِهِمْ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِيهَا وَإِنَائِيهَا
دَعَاها بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ
فَعَادَرَهَا وَهَنَا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ

رَفِيقَيْنِ قَالَا خَيْمَتِي أُمُّ مَعْبِدٍ (1)
فَقَدْ فَازَ مَنْ أَمَسَى رَفِيقَ مُحَمَّدٍ
بِهِ مِنْ فَخَارٍ لَا يُبَارَى وَسُودِدِ (2)
وَمَشَعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدٍ
فَأِنَّكُمْ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدُ
لَهُ بِصُرَيْحٍ، ضُرَّةُ الشَّاةِ مُزِيدِ (3)
يُرَدِّدُهَا فِي مَضَدِرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

فلما سمع حسان بن ثابت رضي الله عنه ما قيل من الشعر في مكة قال يجابوب الهاتف دون أن يعرف من هو:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عَقُولُهُمْ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبِ
لِيَهِنَ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ

وَقُدْسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَعْتَدِي
وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِثُورٍ مُجَدِّدِ
وَأَرْشَدَهُمْ، مَنْ يَتَّبِعِ الْحَقَّ يَرْشُدِ
عَمَى وَهُدَاةً يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
رِكَابِ هُدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ
وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ
فَتَضِدِيئُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضَحَى الْغَدِ
بِصُخْبِيهِ مَنْ يُسْعِدِ اللَّهُ يَسْعَدِ (4)

(1) قالا: من القيلولة؛ وهي النوم عند الظهرية.

(2) زوى: قبض.

(3) حائل: لم تحمل، ضرة: فاعل تحلبت، الصريح: اللبن الخالص.

(4) الجد: الحظ.

لا جرم⁽¹⁾ لقد أجدتِ يا أم معبد في وصف رسول الله ﷺ فأحسنت كل الإحسان، حتى بددتِ كل الواصفين، وفقتِ أهل البيان الفصيحين.

ولما قيل لها: يا أم معبد، ما بال صفتك لرسول الله ﷺ أشبه به من سائر من وصفه من الرجال؟ قالت: أما علمتم أن نظر المرأة أشفى من نظر الرجل إلى الرجل؟.

والغريب، بل العجيب أن هذا الوصف الدقيق المبدع من أم معبد لرسول الله ﷺ تيسر لها بعد جلسة واحدة معه، لأن زوجها أتى عقب انصراف الموكب النبوي عن خيمتها، وطلب من أم معبد أن تصفه له، وما أحسب جودة وصفها إلا بركة من بركاته ﷺ أمد بها الله لسانها لأنها اجتهدت في إبراز محاسن حبيبه ﷺ ومحامده، فجزاها الله كل خير.

وقيل: إن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهو أمير الفصاحة والبيان، سئل: ما أبلغ وصف قيل في رسول الله ﷺ؟ فأجاب علي رضي الله عنه قائلاً: أجمل وصف وأبلغه قيل في رسول الله ﷺ ما ذكرته أم معبد الخزاعية! فقيل له: وكيف لم يصف أحد النبي ﷺ كما وصفته أم معبد؟ فردَّ رضي الله عنه بحكمته المعهودة وإجابته السديدة: لأن النساء يصفن بأهوائهن⁽²⁾، فيجدن في صفاتهن.

دفاعها عن رسول الله ودينه

ولما علمت قريش أن رسول الله ﷺ نزل مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه ضيفين على أم معبد في خيمتها، بعثت نفرًا من سفهائها في أثرهما، فلما وصلوا إليها فوجئت أم معبد بمجيئهم، ورأت الشر يتطاير من أعينهم، فقال قائلهم: أين محمد يا أم معبد؟.

فردت - وهي تخشى عليه منهم - بقولها: أو تسألوني عن أمر ما

(1) لا جرم: أي حقاً.

(2) المراد بأهوائهن هنا: بعواطفهن، وانفعالاتهن النفسية.

سمعت به قبل عامي هذا؟ فقالوا: إنك تعلمين أين ذهب! فقالت: ما أدري ما تقولون.

ولما ألحوا في سؤالها، واستبان الغدر في وجوههم، قالت لهم: لئن لم تنصرفوا عني حالاً، لأصرخن قومي عليكم، وعندها لن تبرحوا مقامكم هذا سالمين.

وحين تبادلوا الرأي آثروا الرجوع إلى قومهم، لأنهم أيقنوا أن أم معبد عزيزة في قومها، وأن صوتاً واحداً تطلقه كافٍ لنجدتها، ورضوا من الغنيمة بالإياب، فهم غير مستعدين لقتالٍ قد يخسرون رؤوسهم فيه، وانقلبوا إلى قومهم صاغرين.

لقد شربت أم معبد وزوجها أبو معبد اللبن الذي حلبه رسول الله ﷺ بيديه الشريفيتين، ولم يعلما أن اللبن لم يدخل جوفيهما وحده، بل تسَلَّل معه نور الإيمان، وسرى في عروقهما كما سرى اللبن، وكما منحهما اللبن الشبع البدني منحهما الإيمان الارتواء الروحي فأصبحا مسلمين.

فما أعظم الخير الذي أصابه أهل الخيمة من الضيف الكريم، والرحمة المهداة إلى العالمين!!.

رحم الله أم معبد، وأبا معبد، ورضي عنهما، وجزاها ما جرى به عباده الصالحين!!.

